العرب
الخميس 2021/09/30
السنة 44 العدد 12195

ياسر الصافي يُطلق الخيال لطفولته المأزومة جماليا

فنان سوري يسرد أكثر مراحل وطنه ألما بعجينة ألوان مُتشائمة

ينشئ الفنان السوري ياسر الصافي نوعا من الالتباس في لوحاته، وهو التباس يبدأ من علاقته بما يرسمه وينتهي بتعسير وصولها إلى المتلقي أيضا. وتتكرّر الكائنات والشخوص الغرائبية في لوحاته من دون أن يرشح من تكرارها تأويل محدّد وآمن.

غريب ملا زلال
كاتب سوري

وأنت تمعن في أعمال الفنان التشكيلي السوري ياسر الصافي (القامشلي 1976) لا تنسَ أن تضع على عاتقك مهمة تجريدها من تصنيفاتها نفسها، كما لا تنسَ أن تتحلّى ولو بجزء من جرأة ومغامرة جاك دريدا، حينها فقط قد تستطيع أن تخطو نحو دواخلها وتعيش علاقة حميمية مع وميضها، وبالتالي قد تستطيع أن تقوم بقراءتها.

نص الصافي، والمقصود هنا أعماله، يحمل كل أثر المرحلة، ولهذا لا تستطيع أن تتجاهل مفرداته ولا درجة انعطافاته نحو مراكز الحركة لتُمارس فعله بأرواح مختارة ومستمدة من عبث الحقيقة، يستعيدها الفنان السوري، والمقصود هنا الأرواح ليكشف النقاب مجدّدا عنها ويُرسل فيها شهيقه وزفيره ويتعقّب أعماقها.

> أفضل السبل لامتلاك مفاتيح المنطق هو إرسال الروح من جديد في طفولتنا، وعودة الروح إلى أطفال أكلهم البارود

وهي أرواح أطفال تمت مصادرتها من قبل آلهة الأرض بأساليب لا تليق إلاّ بكوكبنا، بوحشية نائمة فينا منذ قرون، أرواح يأبى الصافي أن تموت، ولهذا يحمل مفاتيح طفولته ويطلق سراحها لتبدو أكثر تمايزا في لعق الحياة ودحرجته، فالموت القابع فينا يلوث استيقاظ الطفل فينا، ليواجه هو كل الظلال المتضاربة ويخضع الذاكرة لهجومه نحو الريح، مواجها عنّا جبننا وهزيمتنا.

وبعبارات أخرى فإن الصافي يطلق نوافذ طفولته بل طفولتنا أيضا وهي متبلورة بنا ليكون لها نفوذها بتفكيك الحاضر وتقويضه، فمفهومها المفتاحي يكمن في البحث عن إجراءات تتضمّن كمًا هائلا من خطوات للنقلة نحو إزاحة جوهرية لدوائر الخراب فينا.

أرواح مصادرة

الصافي يعتقد أن أفضل السبل لامتلاك مفاتيح المنطق هو إرسال الروح من جديد في طفولتنا، وعودة الروح إلى أطفال أكلتهم البراميل والبارود، ولهذا يشتغل الصافي كثيرا على استراتيجيات الخلق بطرق محبّذة نحو فهم المرحلة أو سوء فهمها حتى، فهو يظهر من خلال نصه/ أعماله خصائص الوضع الحسي لأطفاله ووعيهم لعالمهم الخارجي للتوصّل إلى إتقان التصويب نحو الهدف وقيامهم بالضرورة على العمل من الداخل خشية الوقوع في عدم اتخاذ المفهوم المطروح لتحقيق الحياة الفعلية، ثم يروي لنا الفنان مشاهده البصرية الطفولية المنفتحة على الممارسة السلوكية رغم التحوّلات المحورية ودلالاتها الكثيرة.

من اللحظة الأولى تعتقد أن كل تلك الأشلاء المبعثرة والخراب الكبير في جسد أطفاله وحصاد القتل الممتدّ في أرواحنا وأرواح أطفال الصافي، بل الممتدّ أيضا إلى طفولته.

أقول من اللحظة الأولى تعتقد أنها خربشات طفل لم يستيقظ من الحرب بعد، وقد يكون الطفل هنا الصافي بروحه اللامتناهية والمرتبطة بطرف ما من الكرة الأرضية قد تكون نتيجته فنان يتكئ على التجاهل لما هو قائم من تبعات وتعارض، بل يعمد على تعيين الوجود/ وجوده ووجود أطفاله بعد استيقاظهم من "موتهم المبكّر"، والانخراط في وجودهم الجديد بوصفهم حضورا لا غياب.

حضور يمثل كل تصوّرات الصافي ومفاهيمه، حيث يحدّد السياق الجديد باستمرار نسج سلسلة من العلاقات التجاورية داخل تتابع زوايا البعد الإجرائي لعمله وفق ما يثير محور هذا العمل من ذاكرته بمعطياتها التعبيرية، وعليه يمكن أن يقود ذلك فناننا إلى الدعوة بإعادة صياغاته في حدودها الظاهرية منها والجوهرية، وهذا ما يلحق تغييرا حتميا لركيزة تجربته باعتبارها الأساس في تشكّلها ونموّها واشتغاله عليها دون أي خضوع إلاّ للحساسية العالية لأسلوبه ودلالاته مع سبر التجربة الإنسانية المتهالكة عنده حتى نقي الروح.

لوحات تقرأ الغد قبل أن يأتي

ظلال متضاربة تشي بالخراب الساكن فينا

الدمامة ليست شيئا مضافا بل هي واقع جاثم على الصدور

أبعاد إيحائية

ربما هذا ما يدفع ياسر الصافي إلى البحث المستديم عن سبل تعبيرية غير متداولة، فالأمر يتعلّق بإصراره على التمايز، وهذا ربما الذي يدفعه إلى جعل أعماله مساحات يلعب فيها الفنان مع الطفل المُستيقظ فيه، ويستدعي أطفال الحرب أو أشلاءهم لتكتمل لعبته، أقصد عمله، وإن كانت أشبه بدوّامة فيها يتيه المُتلقي كثيرا وقد يخرج منها بجعبة محيّرة فيها يشرئبّ كل الاحتمالات والمزاعم، وقد يمسك برّمام ما دون أن يدري ما هو.

وهكذا يقلب الصافي الرؤية التقليدية للمُتلقي، ويحرّر طاقاته بقدر ما يحرّر طاقات شخوصه الغريبة القريبة رغم انكساراتها وتشوهاتها، وبذلك يبذل جهدا مضاعفا لتنشيط محرّكات مجازاتهم التي قد تولد وهم في عملية بحث وشوق للدخول إلى عالمه المغلّف بمفاهيم تصنيفية غامضة.

ويمكن للصافي – وبإلمامة تعبيرية مستحدثة – أن يضع شخوصه، بدمامتها وعفويتها، بضجرها ووجعها، بملامحها الغامضة، وبأوصالها المتقطعة، في طريق الكشف عن تقاطعاتهم، والكشف عن تورّطهم في تحديد الجميل وخلقه. أقول يمكن للصافي أن يُعيد التجربة مع شخوصه بوصفهم الجزء المفترض والأهم من مشروعه الفني حيث الهيمنة المعرفية تطغى على المشهدية البصرية بكثافة ما.

أي أن الإحساس بالمعرفة هنا كعنصر مهيمن على النص/ العمل يعطي فضاءاته نغمات تولّد للمُتلقي خيالات تطمح للمزيد وتمنحه كل التحليل المفاهيمي القابل لدراسة مراتب العلاقات بين الموجودات وفهمها أولا ثم الاختلاف لاحقا، مع تجاوز دلالاتها على نفسها وبذهنية مرتبطة على نحو ما بالكثير من عناصر ذات أبعاد إيحائية، والتي تعدّ بحد ذاتها إبداعاً تأويليا، والتي بدورها قد تكون إشارات إلى تنظيم تجربته أو كينونته.

ياسر الصافي يقرأ الغد قبل أن يأتي ويفهم العالم بوصفه حضورا في الواقع، ولهذا تتداخل رؤيته وتتشابك بل وتتكرّر أيضا، وقد لا يعني له هذا الغد إلاّ هوامش افتتاحية لتدوين "خراب الدورة الدموية" للإنسان، وتدوين تشتيته في القتل.

قتل البدايات وقتل النهايات، ولا شيء خارج الدمار، فقيامته قائمة ولهذا لا داعي بالتفكير بالمدينة الفاضلة، ولا بجنة الأرض، فالطوفان قد بدأ ولا نوح عنده ولا جودي، فلا امتيازات ولا أولويات، فالمسخ الذي تنبّئه فينا ها قد عاشه في سقوط كل التجليات، ويرغمنا أن نعترف بعجزنا ووحشيتنا، بل ويعرينا من إنسانيتنا، ككائنات لا نستحق الحياة بل نحمل وزرها.

العراقية نوار شاكر حمد تطوّع المعادلات الكيميائية في لوحاتها التجريدية

لم تكتف الفنانة نوار شاكر حمد بالجين الوراثي الذي استلمته من والدها التشكيلي العراقي الشهير شاكر حمد، بل عمدت إلى تطوير أدواتها الفنية حدّ السعي لخصوصيتها الملوّنة، وهي التي تخصّصت في الوقت ذاته في علم الكيمياء كأستاذة لها حضورها في جامعة البصرة، فجمعت بين صرامة المعادلات الكيميائية وجموح الخيال التشكيلي المتفرّد.

بغداد - تحاول الفنانة التشكيلية العراقية نوار شاكر حمد الاستفادة من المساحة الواسعة من الحرية التي تضفيها مدارس الفن الحديث مثل الانطباعية والتجريدية من حيث تنوّع الألوان والهيئات والأساليب التقنية، بعيدا عن الالتزام الذي تفرضه المدرسة الواقعية.

وتقول الفنانة العراقية الشابة "إن الرسم وترجمة الأفكار والخيالات طاقة إنسانية لا تنضب باستمرار الوجود البشري"، مشيرة إلى أنها نشأت في بيئة أحاطتها بالفن وأساليبه ومدارسه، فكان ذلك البذرة الأولى تجاه انطلاقها نحو الشغف المستديم مع الفن التشكيلي.

وتضيف أنّ والدها الفنان التشكيلي شاكر حمد مكّنها من استكشاف الكثير من تقنيات الرسم، ومعاينة الاختلافات بين المدارس والأساليب، والتعرّف على تاريخ الفن وتحوّلاته. ولهذا اتجهت في بداياتها إلى تجسيد البيئة والمشاهد البصرية والمناظر التي تعكس طبيعة العراق الجنوبية كالبساتين والنخيل والأهوار، وتعدّدت المواضيع والثيمات التي تناولتها، ما بين ريف البصرة وأبوالخصيب إلى الشناشيل والبيوت العريقة التي شكّلت جزءا مهما وغنيا من إرث العراق وتاريخه.

وتوضّح الفنانة أن المدرسة الواقعية كانت لها الكفة الغالبة في أعمالها الأولى، وبمرور الوقت أصبحت تتّجه لتحرير ريشتها من قيود الأساليب المتبعة في الرسم الواقعي، مندفعة نحو المساحة الواسعة من الحرية التي تضفيها مدارس الفن الحديث مثل الانطباعية والتجريدية.

وتُشير إلى أن طقوس الرسم لديها تبدأ من الإلهام والخيالات والرؤى والتشكيلات اللونية والإيحاءات التي تتردّد بشدة على مُخيّلتها ويتلبّس فكرها لفترات قصيرة أو طويلة، وتصنّف على أنها من خارج الواقع، لكنها تطرق ذهنها وبشكل مُلحّ طلبا للخروج من دهاليز اللاوعي، بعضها يتجذّر في الذهن وبعضها في حاجة إلى تسجيل سريع في دفتر أو لعمل كولاج كتصميم أولي للوحة، ترفق به ملاحظات عن الحجم الذي ترغب في تنفيذه والألوان والمواد التي تنوي استخدامها ونوعها.

وتضيف قائلة "قد تتولّد البذرة الأولى أو الصورة الإيحائية للوحة أثناء وجودي في مواقف مختلفة خلال اليوم الواحد، كأن تراودني أثناء حلم أو في حالة أشبه باليقظة أو كأن تظهر لي أثناء طريقي للمنزل عائدة من العمل أو لدى جلوسي أمام النافذة وأنا أحدّق في سماء ربيعية تتخلّلها غيوم تتشكّل في هيئة مُجسّم أو شمس غاربة تترك خلفها خطوطا سماوية ملوّنة وأفقا ساحرا".

وتواصل "تبدأ مرحلة تجهيز اللوحة بالاستناد إلى ملاحظاتي وتسجيلاتي السابقة، ويتخلّل مرحلة الإنجاز استماع للموسيقى والألحان المتفاوتة ما بين المقطوعات الكلاسيكية الهادئة إلى الأغنيات ذات اللحن الطربي التحفيزي التي تشكّل قوة إيجابية تجدّد الأفكار وتنشّط المُخيلة".

وحول مدى تأثير انشغالاتها المهنية كمدّرسة لعلم الكيمياء في جامعة البصرة على ولعها بالفرشاة، تقول "أبدا، على الرغم من كون مهنة التدريس وبالأخص في الجامعة أمرا ليس بالهيّن ويتطلّب الكثير من الوقت والجهد، فالأمر لا يقتصر على مهنة التدريس فحسب إنما يتعدّاه نحو القراءات والاطلاع الضروري لتطوير الخبرة وفهم الحقائق العلمية، وبالتالي توسيع الأفق المعرفي للوصول إلى قدرة عالية على الانجاز العملي. ولكن الشغف بالألوان والتشكيلات والصور الإيحائية والخيالات المباغتة شكّل جزءا كبيرا من ذاتي وولعي بتصور الهواجس والانفعالات الداخلية على قماش الرسم لا يغيّره انشغالي بتطوير خبرتي في مجال العمل المهني".

وتضيف "يمكنني القول إن الوقت المخصّص للعمل والمهنة غالبا ما يكون على حساب الزمن الخاص بتكوين وإنشاء اللوحات الفنية، والتي قد يكون بعضها ناتجا من تأثّر لاشعوري بمجال تخصّصي وحياتي العملية".

وعن استفادتها من تجربة والدها، شاكر حمد، ومدى تأثيرها في تجربتها الفنية تقول "نشأتي في منزل يعنى بالفن وبالأخص الرسم كان عاملا رئيسيا في ظهور قدرتي على الرسم وازدياد ولعي وشغفي بكل ما يتعلق بالرسم والفن".

نوار شاكر حمد

الرسم يعكس طاقة إنسانية لا تنضب باستمرار الوجود البشري

وتسترسل "تجربة الفنان/الوالد ومسيرته الطويلة وكل ما تحمله من ثراء سواء في الفن التشكيلي أو في الأدب والمعرفة والخبرة المتأتية من تنوّع التجارب، فتحت أمامي العديد من الطرق نحو المعرفة والاطلاع على كل ما يرتبط بالغنى الأدبي والمعرفي، فوجدت أمامي موسوعة غنية استقيت منها الكثير فيما يتعلق بالأدب نثرا وشعرا والفن بتنوّعه وغناه".

وحول معارضها الفنية تقول حمد "مساهماتي الفنية جاءت أغلبها ضمن معارض جماعية تضمّن بعضها معارض فنية خاصة بالأعمال التي تلتزم الأسلوب الواقعي من لوحات زيتية وأعمال نحتية، على سبيل المثال معرض 'الإنسان والواقع' الذي تضمّنت مشاركتي فيه لوحتين إحداهما تعكس مشهدا داخليا لبيت من تلك البيوت المصنوعة من القصب والتي يقطنها سكان الأهوار، والأخرى تعكس منظرا ريفيا لأحد بساتين أبي الخصيب. أما غالبية مشاركاتي فتضمّنت لوحات اعتمدت الأسلوب التجريدي بما فيها مشاركاتي ضمن معارض الفن التشكيلي المقامة على هامش مهرجان المربد الشعري ولعدة سنوات".

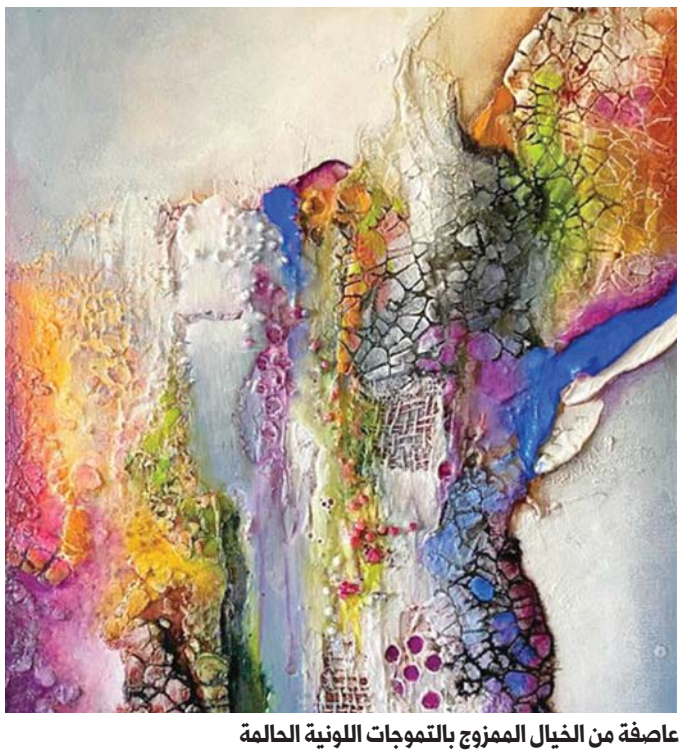

عاصفة من الخيال الممزوج بالتموجات اللونية الحالمة

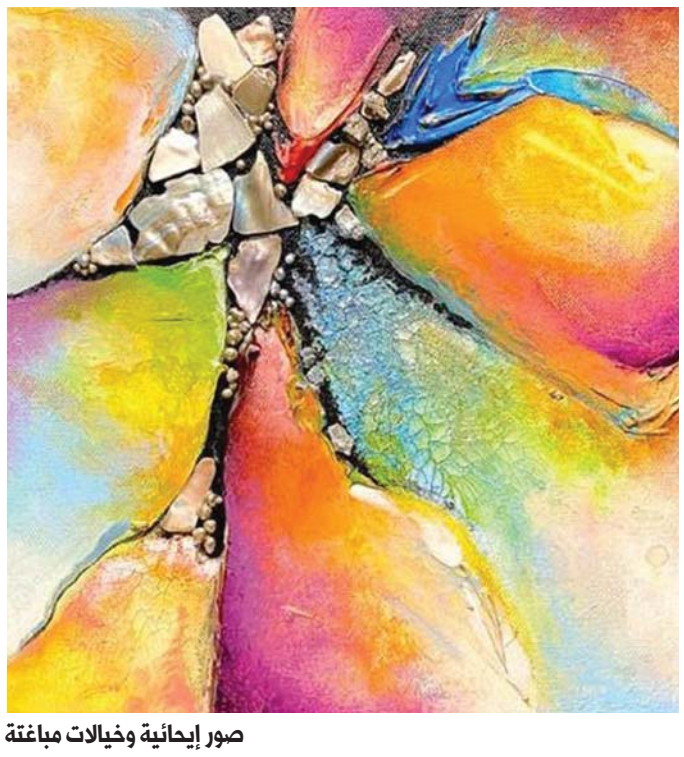

صور إيحائية وخيالات مباغتة